« زوربا » : صراع النموذجين الحسي والتجريدي

بقلم فاضل ثامر

في رواية زوربا يتحدث « الرئيس » ـ الذي هو الروائي نفسه ـ الى زوربا حديثا ذهنيا تجريديا معقدا : « هناك ثلاثة انواع من البشر : الذين يحددون لهم هدفا ان يعيشوا حياتهم كما يقولون ، ويأكلوا ، ويشربوا ، ويحبوا ، ويفنوا ويصبحوا مشاهير . ثم الذين يحددون هدفا لهم ، لا لاجل حياتهم الخاصة ، بل حياة جميع البشر : انهم يشعرون ان جميع البشر ليسوا الا واحدا ويجهدون في محاولة تنميح عقولهم وجسمهم بقدر ما يستطيعون ، ويحسنون اليهم . واخيرا هناك الذين هدفهم ان يعيشوا حياة الكون اجمع : اننا كلنا مـــن بشر وحيوانات وكواكب لسنا الا كلا واحدا ، لسنا الا من جوهر واحد في المعركة الرهيبة ـ اية معركة ـ : تحويل المادة الى روح . »

وحك زوربا رأسه « ان جمجمتي قاسية . انني لا افهم بسهولة. اه ، ايها الرئيس لو كنت تستطيع ان ترقص كل ما تقوله، كي افهم..»» « لو كنت تستطيع ايها الرئيس ان تقول لي كل هذا كحكاية . » ـ وعض « الرئيس » على شفته يائسا « ليتني استطيع الا افتح فمي الا عندما تبلغ الفكرة المجردة اعلى ذروة لها ، عندما تصبح حكاية ! لكن هذا لا يستطيعه الا شاعر كبير ، او شعب بعد عدة عصور من النضج الصامت»».

.. وهكذا يتكشف لنا عالمان متعارضان تماما : عالم زوربا الحسي، وعالم « الرئيس » ـ الروائي ـ التجريدي المثالي . وتستوعب الرواية كل هذا التعارض وتدفعه الى الامام بعمق فلسفي وثراء شعري . « فالرئيس » ـ يحس بازمته هذه منذ الصفحات الاولى ، يحس بسقوطه الرهيب في عالم التجريد والمثالية والبوذية .. تهزه بقوة كلمات صديقه البروميثوسي الراحل الذي يدعوه بـ « الفأر قارض الورق » .. الذي لا يقوم بشيء « سوى مضغ الورق والتلوث بالحبر » ـ وبوعي واصرار يحاول « الرئيس » ان يشق له دربا جديدا بعيدا عن عالم التجريد والمثالية : « انا اعيش الغضب الذي تملكني ، غضب يمازجه الخجل ، حين دعاني صديقي « الفأر قارض الور ق» واني لاذكر منذ ذلك الحين، ان كل قرفي من الوجود الذي كنت اعيشه قد تجسد في هذه اللمة . كيف تركت نفسي اتيه منذ زمن طويل ، انا الذي يحب الحياة ، بين تلك الاكداس من الكتب والاوراق المسودة ! لقد اصبحت الان اعرف اسم شقائي .. » وهكذا يندفع « الرئيس » في مجرى صاخب كي يتخطى هذه الهوة الرهيبة التي تفصله عن شاطىء الحياة الارضية الحسية وهو يعي جيدا « سر شقائه » وازمته : « ان مشكلتي هي اني اعدل الواقع ، اسحب منه دمه ، ولحمه ، وعظامه ، واحيله الى فكرة مجردة ، واربطه بقوانين عامة .. »

ويختار « الرئيس » ميدان المعركة بنفسه ، ويوقتها حسب رغبته تماما : يختار جزيرة كريت ، وفي احد مناجم الفحم المهجورة يبدأ تجربته الجديدة : « ساذهب الان لاعيش مع بشر بسطاء وعمال وفلاحين بعيدا عن جنس الفئران قارضة الورق .. لقد قررت ان ابدل طريقة حياتي .. قلت لنفسي : حتى اليوم يا نفس لم تكوني سوى الظل، وكنت تكتفين به ، اما الان فسأقودك الى الجسد » ويستأجر منجم الفحم المهجور كي لا يعتقد الناس انه مجنون وكي لا يضرب بالبندورة ! وهكذا يشد رحاله الى شاطىء كريت هربا من عالمه الصوفي التجريدي ، وليقيم صلات جديدة مع العالم الحسي . كان يناضل من اجل التخلص مـــن الكابوس البوذي الرهيب الذي يمتصه، ومن كل الافكار المثالية والصوفية والميتافيزيقية التي تزدحم في رأسه . وكان يحلم باقامة « يوتوبيا » من طراز جديد ، يوتوبيا رومانتيكية ساذجة « كنت اقوم بمشاريع رومانتيكية ـ فاستخراخ الليغنيت يتم بسرعة ، لتنظيم نوع من الكومونة نعمل فيها جميعا وكل شيء يكون فيها مشتركا . فنأكل معا جميعا من نفس الطعام ، ونرتدي نفس الثياب كالاخوة . كنت اخلق في ذهني رهبانية جديدة » . وهكذا راح « الرئيس » يبني في الخيال «جمهوريته الفاضلة» .. وكأنه يضع موضع التطبيق احلام توماس مور الخيالية وبرامج روبرت اوين وسان سيمون وفورييه الطوباوية عن الاشتراكية، غير مدرك للاساس التاريخي للاشتراكية وللقوى الاجتماعية التي تصنعها ومتجاهلا التناقضات الحادة التي لا يمكن الجمع بينها في «يوتوبيته». وكان هو يحس بذلك « كانت الرغبة الساذجه تأكلني في ان اجمع الامرين معا وان اجد التركيب الذي تتآخى فيه التناقضات التي لا سبيل للتوفيق بينها » غير ان مشروعا طوباويا كهذا لن يجد له مكانا الا في عالم الحلم . وان اية « يوتوبيا » يراد لها ان تكون واقعا ماديا حقيقيا ـ يجب ان تنطلق من ادراك علمي وموضوعي للحركة التاريخية المعاصرة ولطبيعة القوى الاجتماعية التي بامكانها ان تنهض بالدور التاريخي لتحقيق هذه المهمة العظيمة . وما عدا ذلك فلن يكون سوى احلام فارغة .

وفي ميناء بيريه يلتقي الرئيس بزوربا. والواقع ان هذا «التوقيت» واللقاء يثير مشكلة تكنيكية هامة وذلك لانه يبدو مخططا بشكل غير طبيعي وغير تلقائي . ففي الوقت الذي يفترق فيه عن صديقه «البروميثوسي» الراحل ، ويقف في ميناء بيريه بانتظار السفينة التي تقله الى عالمه الجديد ، في هذا الوقت بالذات يتقدم لنا زوربا ـ وكأنه المسيح المنتظر ـ ليدخل في حياة « الرئيس » ليقوم بالمهمة العظيمة : مهمة مساعدة « الرئيس » في اكتشاف نفسه وتحويلها جذريا من التجريدية الى الحسية . ويكون دخول زوربا في اللحظة الحاسمة تماما وببساطة : ـ امسافر ؟ الى اين اذن ؟

ـ الى كريت . لماذا ؟

ـ اتأخذني معك ؟

وهكذا ينتهي كل شيء . يرتبط هذان الشخصان الغريبان المتعارضان في لحظة عابرة ليرودا تجربة مشتركة فذة ، خطط لها باتقان مفتعل ! وتشاء ارادة الكاتب ان يكون الكسيس زوربا عامل مناجم ايضا ـ حسب الطلب تماما . ويبدو هذا الافتعال منذ اللحظات الاولى لتعارفهما . « فالرئيس » يدرك منذ النظرات الاولى ان الشخص الذي يقف امامه « اشبه بالسندباد البحري » وانه « شهواني ، خبير ، ماهر » بينما يكون من المستحيل استخلاص نتائج سريعة كهذه عبر هذه اللحظات ، بل انها تتجلى عبر تكشف شخصية زوربا خلال سلوكه التطبيقي في البناء الروائي عموما . لذا تبدو هذه الاشارات تقريرية فرضها الكاتب بشكل قسري ودونما مراعاة للتسلسل التاريخي والنفسي للبناء الروائي الذي التزمت به روايته هذه . وهي على اية حال لا ترسخ في ذهن القارىء ولا تقدم له شيئا غنيا ، بل تظل اشارات عديمة الجدوى . ان الدلالات الفكرية والفلسفية والنفسية للشخوص يجـــب ان تتحقق عبر الحدث الدرامي نفسه وليس خلال تلقائية الاحداث الروائية والعوالم الحسية الحية التي يخلقها . وهذه الظاهرة تعاني منها الرواية عموما ، فكثير من الافكار الفلسفية تظل طافية على السطح دون ان تتجسد في كيان حسي ، في صورة فنية معبرة ، رغم ان الكاتب قد نجح في « زوربا » في تقديم عمل روائي ناضج مفعم بدلالات فلسفية عميقة وباصالة فنية طيبة .

ومنذ لحظات اللقاء الاولى ترتبط حياتهما بالفة بعد ان احس « الرئيس » بان زوربا هو المنقذ الذي يبحث عنه . ونبدأ نتعرف تدريجيا الى شخصية زوربا . الا ان الكاتب لا يدع البناء الدرامي يقدم معطياته النفسية والفلسفية باصالة وعفوية بل يتدخل ليقدم لنا

احكاما مسبقة عن زوربا وقبل ان نتعرف جيدا الى سلوكه الفعلي في الحياة . ان الكاتب اذ يلزم نفسه بصرامة البناء الروائي وبالتسلسل التاريخي والنفسي لحركة الاحداث الروائية عليه ان يحرك هذا الترابط الزمني في لا تضعف عناصر التشد والدراما في العمل الفني . فالكاتب يجبر عبر « الرئيس » بان « الاحداث المعاصرة لم تكن سوى امور قديمه في روح زوربا ما دام هو نفسه قد تجاوزها » .. « .. كانت تبدو في عقله تبدان عنيفه صدمه . لقد كانت روحه تتقدم باسرع مما يتقدم العالم . » هذه الكلمات العميقة التي تكشف عن جوانب هامة من شخصيه زوربا لا يمكن ، بالطبع ، استخلاصها في هذه المرحلة من الرواية ، بل يمكن تقديمها بعد ان تكشف لنا شخصيه زوربا كاملة . ويبرز تدخل الكاتب الخارجي — الذي يعبر عنه « الرئيس » في الرواية — في مواضع اخرى . فعندما تلقي باسيدة « هورتانس » الارملة العجوز يخبرها الرئيس بان الحياه بدت له على جزيرة كريت مثل حكاية ، مثل ملهاه لشكسبير ، مثل « العاصفة » . وقد بدت السيدة هورتانس تائها مثله الجزيره وكان زوربا الامير المتنكر يتاملها هو ايضا جاحظ العينين وهي اسيه بسفينة حربية قديمة حاربت في بحار بعيدة وانسحبت الى هذا الساحل وراحت تنتظر ، انها ولا شك تنتظر زوربا الفطن دا أمه ندب — هذه احكام يطلقها « الرئيس » وهو يمد يده ليصافح السيدة هورتانس صاحبة الفندق وهي رغم نفاذها الا انها متسرعه وغير مبررة تماما .

وخلال حركه الاحداث الروائية تتكشف لنا عناصر الصراع الفنية. تتكشف لنا شخصية زوربا العربية . فهو نموذج انساني فريد . انه نموذج للمتمرد ، الذي يعيش الحياة بكل حسيتها ، بكل عنفها وصخبها دون محاوله فهمها موضوعيا وتاريخيا وفكريا ، انه يظل ملتصقا بالجزئيات ، بالخاص فقط ، ويهدم كل صلة بينه وبين العام ، ان مدى الرؤية لديه ، لا يبعد عما يحسه مطلقا وهو يرفض ان يستخلص ايما قيمة فكرية او نظريه لما يجري حوله . فهو لا يؤمن بأي شيء ، الله ، الوطن ، الشيطان ، الثورة كلها اشياء لا قيمة لها بالنسبة لزوربا . وهو يبدو عدميا — نهلستيا — متطرفا يرفض كـل شيء ويقف موقفا لامنتميا من كل شيء . وهو يتناول الحياة بمستوى الالتصاق الغريزي الحسي بالارض ، بالجنس ، بالعمل ، بالطعام ، بالسانتوري . وهو يرى ان الانسان وحش مفترس . وزوربا ينقض كصقر زرادشتي نيتشوي على ملذات الحياة الحسية ويرفض ان يستسلم للموت رغم انه يتصرف وكانه سيموت في كل لحظه . ولاانتمائيته تتمثل في عدم ايمانه بقيم ما ، بشيء محدد ، فهو رجل لحظة ، رجل موقف حي يعيشه ، لا يفكر مطلقا بمستوى التعميم والتجريد ولا يؤمن الا بزوربا . « انا لا اؤمن بشيء بل بزوربا وحده .. ليس لان زوربا افضل من الاخرين ، ليس ذلك مطلقا ، انه بهيمة هو الاخر ، لكنني اؤمن بزوربا لانه الوحيد الذي يقع تحت سلطتي ، الوحيد الذي اعرفه وكل الاخرين انما هم اشباح، انني ارى بعينه واسمع باذنه ، واهضم بامعائه وكل الاخرين ، افول لك اشباح ، وعندما اموت انا فل شيء يموت . ان كل العالم الزوربي سينهار دفعة واحدة . »

ان كلمات زوربا هذه المنطلقة من اعماق انسان ملتصق بكل جسده بالارض وبالعالم الحسي تبدو وكانها طراز غريب من المثالية المتطرفة التي تسقط كل العالم المادي الموضوعي باعتباره مجرد صور يبتكرها العقل المطلق والوعي !

وهكذا يستمر زوربا في مجرى حياته المتحدد سلفا .. يزداد انغراسا في دبق الارض وحرارتها . يود لو « تحرق كل الكتب » ويكره التجريد وكل درجة من درجات الفكر والوعي . عندما يتحدث اليه « الرئيس » حديثا تجريديا فلسفيا يحك رأسه ويعلن عدم استيعابه لشيء « لو تقول لي كل ذلك كحكاية ! .. لو ترقص لي ، كل ما تقوله » ان زوربا يحس هنا بعقم التجريد ، وهو يشعر ان الكلمات تعجز كثيرا عن التعبير عن عواطفنا ومشاعرنا المتمردة . انها عاجزة في نظره عن تحقيق « التوصيل » بين البشر ، لذا راح يفتش عن لغة تعبيرية جديدة ويجدها خلال تجربته الخاصة في الرقص . وهو هنا لا يصرخ فقط ويعلن عجز اللغة عن تحقيق مهمتها الانسانية كما فعل كتاب اللامعقول ، بل انه قدم لغة جديدة بدت له أكثر تعبيرية واصالة واخلاصا . « لقد سقط البشر سافلا ، يا للعار لقد جعلوا اجسادهم خرساء ، ولم يعودوا يتحدثون الا بالفم . لكن ماذا تريد ان يقول الفم؟ ما الذي يمكنه ان يقول ؟ » .

وهكذا ينطلقان معا في دروب وسواحل كريت .. زوربا والرئيس: نموذجين متعارضين .. يعيشان تجربه ضخمه . ومنذ اللحظات الاولى ينغمر زوربا في عالمه الحسي .. فيلتقي بالارملة العجوز « بوبولينته » ويسكر ويرقص ويعمل، ياكل بنهم، يفعل، اما ما عدا ذلك فالى الجحيم.

اما « الرئيس » — الروائي نفسه — فيظـل مسرحا لصراع عنيف . وفي الواقع فان عناصر الصراع لا تسقطها شخصية زوربا، بل شخصية « الرئيس » نفسه — فزوربا يسير في طراز حياتي ومستوى ذهني محدد ، اما الروائي فيعيش ازمة عنيفه ، يعيش محاضا هائلا . انه يدرك « سر شقائه » : انغلاقه وعزلته عن التجربة الحسية للحياة وتجريديته وسقوطه اسيرا للفكـــر البوذي الصوفي وللروح المسيحية ولاشعار دانتي وافكار الاشتراكية الطوباوية . وهو يود ان يجتاز هذه الدوامه ، ان يعبر هذه الهوة الى الشاطيء الثاني : الحياة الحسية ، وان يقطع كل صلاته بالعالم القديم .

وعبر هذا الصراع ، هذا المخاض المؤلم ، تقدم الرواية جوانب ضخمة للصراع الانساني الفني بالتمرد والبت والانفجار . فبوذا يبدو له بئرا عميقه ، يفتح هوته ليبتلعه وهو يناضل ليخلص روحه من الاذرع الاخطبوطية اللزجة . فعلى ظهر المركب الى كريت تهاجمه افكاره البوذية رغما عنه فتتملكه شفقة بوذية باردة كاستنتاج ميتافيزيقي ، شفقة على البشر فحسب ، بل على العالم اجمع الذي يناضل ويامل ولا يرى ان كل شيء ان هو الا محاولة لاظهار الاشباح من العدم . » الا انه يظل يقاوم هذا التصوف البوذي وهذا الاغراء الذي سجنه عن الحياة والبشر فترة طويلة وابقاه معلقا في « العام » — وهو يود ان يقفز من قطب « العام » التجريدي الى قطب « الخاص » الحسي . ولا يبدو هذا الصراع المفعم بالمعاناة سهلا . فرياح الفكر البوذية تهب ثانية « متى انزوي اخيرا في الوحدة ، بمفردي دون رفاق ، دون فرح او حزن ، لا يصحبني سوى اليقين المقدس ، بان كل شيء ليس الا حلما . متى اعتزل فرحا مع اسمالي — دون شهوات — في الجبل ؟ متى اختلي ، بعد ان اتبين ان جسدي ليس الا مرضا وجريمة وموتا ؟ » ويخوض « الرئيس المعركة » الضارية . لقد ترسبت البوذية في اعماقه وبدت مغروسة في دمه ، لا يمكن انتزاعها بسهولـــة . الا ان اصراره والتصاقه بالتجربـة اليومية للحياة الحسية وتتلمذه على يد زوربا بالاساس .. كل ذلك قد دفعه خطوات ابعد عن طريق المثالية الصوفية . كان يخوض صراعا عنيفا لكي يحقق مهمته المزدوجة « ان يهرب من بوذا ويتخلص في الكلمات من كل همومه الميتافيزيقية ، ويحرر روحه من قلق غير مجد . ثم يقيم بدءا من الان ، احتكاكا عميقا ومباشرا مع البشر » . وبدأت جدران معابد بوذا تتشقق في روحه وراح « العام » التجريدي يتداعى رويدا ، وينغرس في الطين امام عالم زوربا الحسي الشديد « الخصوصية » . كانت روح بوذا تنسحب بمقاومة عنيفة من جسده .. « كان بوذا يتبدى له عالما كاملا مصنوعا من الشفقة والرفض والهرب والتصوف واعلان النجاة .. حيث تصبح النفوس هواء ، وتصبح روحا ، والروح تتبدد .» ويشده عالم زوربا اكثر فاكثر بكل حسيته وبدائيته التي تصل احيانا لدرجة البوهيمية « لو استطيع ان آخذ اسفنجة وامحو كل ما تعلمته، كل ما رأيته وسمعته ثم ادخل مدرسة زوربا وابدأ الابجدية الكبيرة، الحقيقة ! كم ستكون الطريق التي ساسلكها مختلفة ! سادرب حواسي الخمس . سأملأ روحي بالجسد ، واملأ جسدي بالروح ، وسأوفق اخيرا في نفسي بين هذين العدوين الابديين » . وتلهمه حماسة زوربا « كوم كل هذه الكتب واشعل فيها النار وبعد ذلك من يعلم فانت لست ابله ، انك رجل شجاع ، يمكن ان يصنع منك شيء ما » . وكانت الكلمة تعويذة وسلاحا ضد البوذية وافكار الميتافيزيقية والرهبنة .. « يجب حصار بوذا بالكلمات . » كانت الكلمات تبدو له سيفا سحريا . كانت مدعوة « لتخليصنا من القوى المظلمة السفاكة ، الدوافع المشؤومة الى

— التتمة على الصفحة ٦٥ —

تتمة «زوربا»

القتل والهدم والكره وتلويث الشرف . » وهكذا كان سيف الكلمات يقف ليطرد روح بوذا من جنته الارضية المفقودة . كان يطلب من الكلمات ما طلبه ارسطو من التراجيديا الاغريقية ، « مطهرا » ـ كاثرسس ـ معاصرا ضد الشر . كان يستنجد بالكلمات كلما داهمته البوذية « ليرحل بوذا عني » .. « انه الروح الصافية التي تجوفت . ان فيه العدم ، وانه العدم . انه يصرخ افرغوا احشاءكم ، افرغوا روحكم ، افرغوا قلبكم . واني وضع قدمه امتنع الماء عن الانبجاس والعشب عن النبت والطفل عن الولادة . » وراح ينزلق من برجه المعلق في « العام » التجريدي الى الارض الحسية « ايتها الارض انت وحدك موجودة ، وانا لست الا وليدك الاخير» ـ كان واثقا بان بوذا سيكون النهر الاخير الذي سيعبره ، سيكون « البئر الاخيرة » كان واثقا من ذلك . « لكن بوذا بفضل زوربا سيكون البئر الاخيرة ، وسانقذ منها . » وتحفل الرواية بعناصر الصراع والمعاناة التي يعيشها « الرئيس » على ساحل جزيرة كريت وقد بدأ يبدل جذريا منهاج حياته ، ويرتبط بحياة الناس وبالعملية الانتاجية ، ويمارس فعليا ملذات الحياة الحسية . كان يحس ان جسده ينسحب تدريجيا من تمرين لزج « شقي من لا يستطيع الخلاص من البوذاوات والالهة والاوطان والافكار » . وهكذا يبدأ « الرئيس » وهو في طريقه الى عالم زوربا الحسي بتحطيم كل شيء لا العالم الصوفي وبوذا والمسيح والميتافيزيقية ودانتي بل حتى الاوطان والافكار والثورة وكل ما يبعده عن الالتصاق الحسي البدائي بالارض. ويعلن انتصاره النهائي بعد رحلة شاقة « انني لم اعد بحاجة الى وجه قلقي هذا ، لقد تجاوزته ، وانهيت خدمتي بالقرب من بوذا ، ورفعت يدي انا ايضا وامرت بوذا ان ينحل فـــي ـ بمعونة الكلمات ، خططت اسمه بقلم احمر كبير . لقد انتهى الامر . وكان يحس بهذا التحول الذي ينضج خلاله . كان يحس بالانسان الجديد الذي ينضج خلاله .

وهذا ينتقل الرئيس ـ عبر مسيرة صراعية ـ من قطب « العام » التجريدي الى قطب « الخاص » الحسي ، من التصوف والبوذية والميتافيزيقية والطوباوية الى الانغراس في عالم الطين والتجربة الحسية وبالالتصاق بالجزئيات وقطع كل صلة « بالعام » وبكل مستويات الوعي والنظرية والتجريد ، وتناول العالم الجزئي الصغير ، كما هو دون محاولة فهمه ، تقييمه ، بل افتراسه فقط .

وهذه العملية هي بلا شك اغنى عناصر الصراع والشد في الرواية عموما . وذلك لان عملية تحول نفسية وفكرية وحياتية كهذه اكثر حياة وديناميكية من حياة زوربا المتمردة على خط واحد . وذلك لان مجـــرى حياة زوربا متحدد تماما كمجرى شلال عنيف ينحدر بقوة من اعالي جبال بيضاء على صخور ضخمة .

ان هذين النموذجين الفنيين بالصراع والقيم والحياة يطرحان العديد من الاسئلة الجادة الملتهبة . يطرحان سؤالا عن الدلالات التاريخية والنفسية لهذين النموذجين المتعارضين : نموذج زوربا الحسي ونموذج « الرئيس » التجريدي .

وان هذين النموذجين ، رغم كل شيء ، لم ينزلا من السماء ، انهما نتاج شرعي لمجتمع معاصر ، فهما نتاج المجتمع الرأسمالي في مرحلة تفسخه وانحطاطه ، في مرحلة اشتداد وتعمق تناقضاته وسحقه للفرد ولحريته بقسوة وضراوة . ان شخصية زوربا الحسية لحد التطرف ، وشخصية « الرئيس » ـ الروائي ـ التجريدية لحد الاغراق ، دلالات ذات قيمة خلقتها ظروف المجتمع الرأسمالي وكل مجتمعات الاستغلال حيث ينفصم العمل الفكري والعمل اليدوي بسبب من المصالح الطبقية المتعارضة لطبقات المجتمع الاستغلالي عموما . فبسبب من التصاق زوربا بالعمل اليدوي ، بالجزئيات الميكانيكية للعملية الانتاجية فقط ، وبالتجربة الحسية باضيق حدودها ، تضعف لديه القدرة على الرؤية الشاملة العامة لحركة الحياة والاحداث التاريخية .. انها نتاج انفصام عمله اليدوي عن العملية الفكرية عموما . نتاج قدمه المجتمع الرأسمالي الذي يعيق النمو المتكامل للشخصية الانسانية ، بينما نرى ان شخصية « الرئيس » تمثل انفصام العمل الفكري الذي يمارسه الفرد عن العمل اليدوي ، عن الحياة الاجتماعية والعملية الانتاجية عموما . ولذا فان حل الازمة الداخلية النفسية والفكرية والحياتية للفرد لا تتحقق جذريا الا بتصفية الانفصام بين العمل الفكري والعمل اليدوي ، لاتاحة المجال امام التطور المتكامل للشخصية الانسانية . وان ذلك لا يتحقق الا بالالتصاق بمشاكل البشرية ، وبتحديد موقف ايجابي واع في الحياة، لا باعلان الاحتجاج على الواقع الخارجي فقط او رفضه فقط بل في النضال من اجل تغييره . ان صرخة زوربا « ان كل ما يجري فوق هذه الارض غير عادل » تتلاشى بلا جدوى ، تظل صرخة عبثية فارغة اذا لم تقترن بايجابية عالية لتحويل هذا الرفض والاحتجاج الى حركة واعية لنسف المجتمع القديم المتهرىء وبناء مجتمع جديد يحرر الفرد من عبوديته وانسحاقه واغترابه . ان نضال الانسان باتجاه تغيير العالم يوطد صلة الفرد بالجماهير ، بحركة الحياة الدافقة ويعطي لحياة الفرد معنى جديدا . اما تحويل هذا الاحتجاج الى انسحاب عن الحياة العامة للمجتمع الانساني المعاصر فلـــن يزيد التناقضات الداخلية للفـــرد الا حدة ويؤدي الى تجميد حركـــة التطور التاريخي واستمرار اسبـــاب انسحاقه وتمزقه . ان التحرر التام مـــن التعقيدات النفسية والفكرية للفرد لا يتم بالانسحاب الى قطبين بعيدين عن الحياة : اقصى درجات التجريد ، او اقصى درجات الحسية بل في الانغمار في حركة التحولات الاجتماعية وفي الحركة الفكرية والحضارية للمجتمع المعاصر . ان ذلـك لا يتم بتحطيم كل القيم والاهداف السامية للبشرية ، ليس برفض كل ما هو خير ، ليس في الانطلاق من موقف عدمي رفضي ، بل من زاوية ايجابية لتحويل العالم تحويلا تاريخيا جذريا وبالتزام واع من كل عناصره العدائية . اما الانطلاق باتجاهات عشوائية بدائية وبوهيمية ، والارتداد الى طفولة بدائية فسوف يعمقان الصراعات الداخلية لدى الفرد . ان حل الازمة الداخلية والخارجية لا يتم بتحدي قوانين الضرورة الموضوعية ، بل بادراكها والسيطرة عليها . ان تحدي قوانين الضرورة التاريخية لا يقود الا الى تمرد عبثي غير مجد يمزق الشخصية ويهدمها . ان الرواية تتجه نحو تمرد عبثي غير مجد كهذا ، تمجد قفزة الانسان الدونكيشوتية لقهر الضرورة ، لاخضاع القانون الخارجي لقانون روحه الداخلي . ـ ولكن امن الممكن تحدي قوانين الضرورة الموضوعية؟ وهل ان هذا التحدي سيحل الازمات النفسية المعقدة للفرد ؟ ان تجربة العصر التاريخي المعاصر ، برهنت ان طريق الحرية لا يتحقق عبر تحدي قوانين الضرورة الموضوعية بل « عبر ادراك هذه الضرورة » كما يقـــول هيغل ومن ثم السيطرة عليها وتوجيهها في خدمة الانسان والحركة التقدمية الصاعدة للمجتمع الانساني . ان مفهوم الحرية الذي يسود الرواية مزيج انتقائي غير متجانس من قدرية ساذجة ووجودية سارترية ومثالية طوباوية وايمان مسيحي . وان كلمات زوربا التي يتساءل فيها لماذا يمنحنا الله الحرية بدل الصواعق تذكرنا بصرخة « اوجست » في « ذباب » سارتر من ان الحرية تنقض عليه انقضاضا .

وهكذا فان هذا الطريق التمردي غير الواعي لن يزيد الازمة الا اختناقا . ان حل الازمة لا يتم عن طريق نسف كل البناء الفكري والتجريدي ، بل عن طريق وضعه في خدمة التطبيق الحي .. يجب ان ينبع البناء الفكري والايديولوجي من قاعدة مادية صلدة ، هي الحياة الاجتماعية والانتاجية للبشر ، وليس من تصورات خيالية طوباوية لا تمد جذورها الى الارض لان ذلك سيؤدي الى نمو عناصر الوهم والتضليل والتجريد المطلق . ان طريق تكامل الشخصية لا يمر عبر « تكديس الكتب وحرقها » بل عبر وضع الكتب في خدمة الناس ، خدمة الحياة وربطها بالتطبيق العملي اليومي ومن اجل ان يقترن القطبان المتعارضان: قطب التجريد الفلسفي الذي يمثل العام ، وقطب الحسية ، البدائية الذي يمثل اقصى درجات الخاص ، من اجل تامل العام والخاص وتفاعلهما الجدلي ، من اجل اقتران النظرية بالتطبيق الخلاق الحي للحياة البشرية .

العراق — فاضل تامر